

أبو حامد الغزالي

ومعارضوه من أهل السنة

للدكتور على سامي النشار
أستاذ الفلسفة بكلية الآداب
جامعة بغداد

لم يشغل مفكراً من مفكري الإسلام العالم الإسلامي أكثر مما شغله أبو حامد الغزالي . ولم يثر عالم من علماء المسلمين أكثر مما أثار من تأييد وتمجيد ومحاجمة واستكبار ، ومدح وقدح . فقد شغل الرجل جميع دوائر الفكر الإسلامي بلا استثناء ، فلسفية أو كلامية أو أصولية أو فقهية أو صوفية . وقد كتب الغزالي في كل ميادينها ونبع عن عقريها فياضة . داخلية وخارجية فيه - وشغل - كما قلت الأجيال من بعده . وأثر فيها أكبر تأثير ، حتى أيامنا هذه . وقد وقف له بالمرصاد الكثيرون من أعدائه ، يحاولون تحطيم هذا الصرح الكبير الذي أقامه . وكثبت المؤلفات المتعددة في نقد كتبه وتعرض لآخر نقد تعرض له مفكر من المفكرين ، وحاول البعض من الأقدمين أن يسلب عنه أصالته ، وحاول البعض الآخر أن يبين تهافت كتاباته . وذهب الناس فيه كل مذهب . ولسنا هنا في مجال الاحاطة بكل هذا . ولكتنا سنعرض لوقف معارضيه من أهل السنة والجماعة . ومن العجب أن يتصدى له من بينهم معارضون وقد كان « عالم أهل السنة الكبير » والمنافع الأكبر عن عقيدتهم . قضى على « الفلسفة المشائبة » لاجلهم ، وهاجم أعداءهم من المتكلمين من مختلف الفرق في سيلهم ، ثم كتب لهم في علومهم أعمق الكتب ، وما زال كتابه (المستصفى في أصول الفقه)

نسقاً بديعاً لكتبهم . ثم توج هذا المجهود الضخم المتعدد التواعي
يوضع الاخلاق العملية على أساس من عقيدة أهل السنة في كتابه العظيم
« احياء علوم الدين » . ووضع بهذا أساس التصوف السنوي العلى في أدق
صوره . وما زال « الاحياء » حتى الان الملمح العريق لدوائر أهل السنة
والجماعية . ثم مات . . . وأعظم كتب الحديث « صحيح البخاري » على صدره ،
معلنا للوجود كله أن « عقيدة أهل الحديث » هي العقيدة الناجية في الاسلام .
وينقسم أهل السنة والجماعة في موقفهم من الغزالى الى طوائف ثلاثة .
الطائفة الاولى - ذهبت الى اعتباره أكبر علماء المسلمين ونسبوا له الصدقية
العظيمة . والطائفة الثانية هاجمه هيجوماً ليناً ليس فيه قسوة ولا شدة .
والطائفة الثالثة - تناولته بالذم والتجريح - وذهبت الى اعتباره مبتدعاً كبيراً ،
ظهور بما ضمه بعض كتبه من مذاهب فلسفية ونزارات غامضة ورموز تحفى
وزراءها مذاهب تحالف الدين في جوهره أشد مخالفة .

وما زال « الغزالى » مشكلة حية من مشاكل العالم الاسلامي . بل
ومن مشاغل الفكر الانساني عامة . وما زالت كتبه مدرسة كبرى للعدد
المديد من المسلمين في أرجاء العالم الاسلامي . وقد تبه المستشرقون الى
أهمية الكبرى في العالم الاسلامي المعاصر . فكتب Carra de Vaux كتابه
Al Ghazali⁽¹⁾ تناوله فيه من الناحية التاريخية . ثم كتب Asin Palacious⁽²⁾
المستشرق الاسباني المشهور كتاب Al Ghazali ايضاً . وقد تناوله من
الناحية الموضوعية ثم كتب كتاباً آخر عن معنى كلمة « تهافت » في الفلسفة
الغزالية . وتتابعت الكتب المختلفة عن الغزالى في اللغات الاوربية . ثم
كتب المبشر المت指控 « زويسر » عن الغزالى كتاب « العواص عن الملايىء »

(1) Carra de Vanx: Al Ghazali: Introduction: I - 15.

(2) Asin Placious, Al Ghazali I - 25.

وحاول أن يثبت أن الغزالى قد تأثر بال المسيحية • ومع أن « زويمر » لم تتوفر له الحيدة العلمية في كتاباته ، بل كان يسيطر عليه دائماً اتجاهه الديني في البحث ، فلم يتبع في كل ما كتب سوى أكاذيب صارخة ، الا أنه كان يشعر بما للغزالى من أهمية كبيرة في العالم الإسلامي الحديث ، فكتب كتاباً محاولاً أن يصبح كتابات الغزالى بصورة مسيحية ، كان الغزالى أبعد الناس عنها ، بل حاربها أشد المحاربة •

ومما لاشك فيه أن الغزالى خاص في كل المسالك العقلية ، واقحمها واحداً فواحداً • وأصحاب من عاصروه ومن بعده من أجيال البهر مما كتب • وانسابوا وراءه انما اتباعاً وراءه مصدقين واما اعداءه منقين عن سقطات كبرى ، أو هنات صفرى وستعرض الآن صور من نقد علماء أهل السنة والجماعة له ، نرى هل تقوم تلك الانتقادات على أساس صحيحة من تفهم للفلسفة الغزالى أو لفكرة ، أم تقوم على تفهم خاطئ لهاذا الفكر •

١ - الفقيه المالكى أبو عبد الله المازرى والغزالى : كان من فقهاء المغرب العظام ، مالكى المذهب ، أشعري العقيدة • وكان على علم فياض .
بحيث يذكر السبكى أنه « كان من أذكى المغاربة قريحة وأحدهم ذهناً^(٣) ». وقد قام المالكى بشرح « البرهان » لامام البرهان • والبرهان كتاب خطير مستعص على الكثيرين من العلماء • ولكن المازرى استطاع بعلمه العميق أن يفتح مغاليقه • يقول السبكى « اجترأ على شرح البرهان لامام الحرمين • وهو لغز الأمة الذى لا يحوم نحو حماد ولا يبددن حول مفراه الا غواص على المعانى ، ثاقب الذهن مبرز فى العلم »^(٤) أما اشعيته فقد عرف بها فى المغرب وكان أحد المدافعين الكبار عنها • ولعل مالكيته وأشعيته هي التى دفعته الى مهاجمة الغزالى • وسنرى أن السبكى سيدرك هذا تعليلاته بهجوم المازرى على الغزالى •

(٣) السبكى : طبقات الشافعية الكبرى ج ٤ ص ١٢٤ - ١٢٥

(٤) السبكى : طبقات الشافعية ج ٤ ص ١٢٢ - ١٢٣

هاجم المازري الغزالى فى مسألة من أهم المسائل التى شغلت الباحثين – فيما بعد – فى فكر الغزالى . وهى مزج الغزالى لعلوم المسلمين ومذاهبهم الاصولية والكلامية بعلوم اليونان . والغزالى حقيقة قد قام بنوع من هذا المزج بين علوم المسلمين وعلوم اليونان . وخاصة فى علمي أصول الفقه وأصول الدين . ولذلك نرى المازري – وهو فقيه نفاذ فى علوم المسلمين يحترم ما كتب الغزالى فى انتقائه ، ويرى أن الغزالى عرف الفقه معرفة تامة . ولكنـه شعر بقلق لكتبه من أصول الفقه فقال ، « هو أعرف بالفقه منه بأصوله » فلما وصل ابن ما كتب الغزالى فى علم الكلام ، أدرك تماماً أن الغزالى خالـف مشيخة المتكلمين جـميعاً فى محاولـته مـزجه بـعلوم اليـونان يقول « انه قرأ علم الفلسفة قبل استـبحارـه فى فـن أصول الدين » ، فـأكـستـه قراءـة الفلـسـفة جـراءـة على المعـانـى ، وـتسـهـيلاً للـهجـوم علىـالـحقـائق ، لأنـالـفلـاسـفة تـسـرـ معـ خـواـطـرـها وـليـسـ لهاـ حـكـمـ شـرـعـيـ تـرـعـاه ، ولاـ تـخـافـ منـ مـخـالـفةـ آمـةـ تـبـعـهاـ^(٥) » ثمـ يـذـكـرـ أنـ بعضـ أـصـحـابـ الغـزالـىـ قدـ أـخـبـرـهـ أنـ الغـزالـىـ كانـ يـدـرسـ رسـائـلـ أـخـوـانـ الصـفـاـ . ثمـ انـ الغـزالـىـ أـخـذـ أـيـضاـ منـ ابنـ سـيـناـ . وـفـيـ فـقـرـةـ أـخـرىـ يـقـولـ عنـ كـابـيـ الـاحـيـاءـ أـنـ ذـكـرـ فـيـ جـمـلاـ مـذـاهـبـ الـموـحدـينـ وـالـفـلـاسـفـةـ وـالـمـتصـوفـةـ وـأـصـحـابـ الـاشـارـاتـ وـانـهـ مـتـرـددـ بـيـنـ هـذـهـ الـطـرـايـقـ لـاـ يـعـدـوـهـاـ . نـمـ أـوهـيـ أـحـادـيـثـ الـاحـيـاءـ . وـاتـهـىـ إـلـىـ انـ مـصـدـرـ كـتابـاتـ الغـزالـىـ الصـوـفـيـةـ هـىـ أـبـوـ حـيـانـ التـوـحـيدـىـ . وـاتـهـىـ إـلـىـ انـ جـسـلـهـ هـذـهـ الـاعـرـاضـاتـ تـقـدـهاـ السـبـكـىـ نـقـداـ عـلـيـاـ بـارـعاـ . وـلـكـنـاـ نـقـفـ بـيـنـ عـنـ وـاحـدـ مـنـهـاـ . وـهـوـ مـزـجـ الغـزالـىـ لـعـلـومـ الـمـسـلـمـينـ بـالـمـنـطـقـ وـالـفـلـسـفـةـ الـيـونـانـيـةـ . هـذـاـ نـقـدـ هـامـ وـجـهـ إـلـىـ الغـزالـىـ لـاـ مـنـ أـعـدـائـهـ فـحـسبـ ، بلـ مـنـ تـلـامـذـتـهـ ، فـقـدـ ذـكـرـ القـاضـىـ أـبـوـ بـكـرـ بـنـ العـرـبـىـ أـنـ الغـزالـىـ « دـخـلـ فـيـ قـلـوبـ الـفـلـاسـفـةـ وـلـمـ يـسـطـعـ أـنـ يـخـرـجـ مـنـهـ^(٦) » وـإـذـ نـحـنـ بـلـائـاـ إـلـىـ النـقـدـ الـبـاطـنـ ، لـوـجـدـنـاـ أـنـ كـتبـ

(٥) نفس المصدر ص ١٢٣ - ١٢٤

(٦) ابن تيمية : موافقة صريح المقول لصريح المنقول . [على حامش منياج السنة] . (طبعة القاهرة) ص ٣

الغزالى ملية بالمعانى الفلسفية ٠ وأنه فى بعض كتبه أضفى على المعانى
الاسلامية صبغة فلسفية ، ولكن ليس معنى هذا أنه أخذ من تلك الفلسفة
ما يخالف عقائد الاسلام ٠٠

٢ - أبو الوليد الطرشوش : وقد كان معاصرًا للغزالى مالكية
أيضاً وقد قابله وناقشه واتهى به الامر الى أن يحكم عليه بأنه « رجل من
أهل العلم ، قد نهضت به فضائله واجتمع فيه العقل والفهم وممارسة العلوم
طول زمانه ٠ ثم بدا له الانصراف عن طريق العلماء ، ودخل في غمار
العمال ، ثم تصوف ٠ فهجر العلوم وأصلها ودخل في علوم الخواطر وأرباب
القلوب ووساويس الشيطان ، ثم شابها بأراء الفلاسفة ورموز الحلاج ، وجعل
يطنع على الفقهاء والشكلين ٠ ولقد كاد ينسلخ من الدين ٠ فلما عمل
الاحياء ، عمد يتكلم في علوم الاحوال ومرامز الصوفية ٠ وكان غير ائيس
بها ولا خير بمعرفتها ، فسقط على أم رأسه وشحن كتاباته
الموضوعات »^(٧) ٠

قام السبكي - هذا العالم المنهجى الممتاز - وبطريقة لا تقل أصالة عن
أى منهج تاريخى معاصر - بمناقشة هذين العالمين المالكين ، مطبقاً فى
مناقشته ونقده ما يعرف فى عصورنا الحديثة بمنهج النقد الخارجى والباطنى
للنصوص ٠

يرى السبكي - مطبقاً منهج النقد الخارجى - أن المازرى مالكى المذهب
شدید الميل الى مذهبة كثير المناضل عنه ٠ لا يطيق أن يخالف المذهب عالم
من العلماء ٠ فنفر من الغزالى نفوراً واضحاً كما نفر من شيخه امام الحرمين
من قبل ، لأن امام الحرمين والغزالى ضعفاً مذهب مالك في كثير من المسائل

(٧) السبكي : طبقات الشافعية ح ٤ ص ١٢٣

وعلى الاخص في « مسألة المصالح المرسلة » وكذلك في الترجيح بين المذاهب . يضاف الى هذا أن طريق المازري وطريق الغزالى مختلفان « ما رأيت سالك طريق الا ويستقبح الطريق الذى لم يسلكها ولم يفتح عليه من قبلها أو يضع عند ذلك من غيره ، لا ينجو من ذلك الا القليل من أهل المعرفة والتمكين » وهذا حق يلاحظه السبكي . فإذا ما وصل الى المازري والغزالى يقول « وطريقة المازري الجمود على البارات الظاهرة والوقوف معها . وطريقة الغزالى التصوف والتعمق فى الحقائق ومحبة اشارات القوم والكل حسن والله الحمد »^(٨) .

فالمازري اذن فقيه من أهل الظاهر ، التزم بظاهر الشرع ولم يتعداه ، والغزالى صوفي من أهل الباطن ، اتخذ الذوق والكشف منهجا له . والطريقان حق عند السبكي ولكن الامر اختلف بين الرجلين . وكما كره المازري امام الحرمين والغزالى لانهما ضعفا مذهب مالك ، كرههما ايضا لانهما اختلفا مع أبي الحسين الاشترى فى بعض الموضع . وكان يرى أن « من خطأ شيخ السنة أبا الحسن الاشترى فهو المخطى »^(٩) .

ويرد السبكي على هذا برد يستند فيه على النقد الداخلى للنص فيقول « وقد وقفنا نحن على غالب كلام الغزالى وتأملنا كتب أصحابه الذين شاهدوه ، وتناقلوا أخباره . وهم له أعرف من المازري » وانتهى به الامر الى أن « الغزالى رجل أشعرى المعتقد خاص فى كلام الصوفية »^(١٠) .

والرأى الصحيح فى المناقشة بين السبكي والمازري أن الغزالى أشعرى المعتقد ، لم يخرج عن عقيدة الاشاعرة ، ولم يختلف مع الشیخ الا فى

(٨) السبكي : طبقات الشافعية ح ٤ ص ١٢٤

(٩) طبقات الشافعية ح ٤ ص ١٢٤

(١٠) السبكي : نفس المصدر ج ٤ ص ١٢٥

موضع جزئية . وكتب الغزالى الكلامية بين أيدينا ليس فيها اختلاف جوهرى مع كتب الاشعرى . بل ان الخلاف فى الرأى بين امام الحرمين والاشعرى مثلا أكثر بكثير من اختلاف الغزالى والاشعرى .

ثم يذكر السبكي قول المازرى بأن الغزالى ضمن كتبه جملة من مذاهب الموحدين وال فلاسفة والمتصوفة وأصحاب الاشارات . فيقول « ان عنى بالموحدين الذين يوحدون الله فالمسلمون أول داخل فيهم . ثم عطف الصوفية عليهم ، يومهم انهم ليسوا مسلمين وحاشا لله . وان عنى به أهل التوكل على الله ، فهم من خير فرق الصوفية الذين هم من خير المسلمين ، بما وجه عطف الصوفية عليهم بعد ذلك – وان آراء أهل الوحدة المطلقة النسب كثیر منهم الى الاخلاق والحلول ، فمعاذ الله ليس الرجل من هذا الصوب وهو مصرح بتکفير هذه الفئة ، وليس في كتابه شيء من معتقداتهم »^(١) .

والسبكي يعلم تمام العلم أن هذا الاخير هو ما قصده المازرى ، وهو أن الغزالى انتهى الى مذهب الوحدة الصوفية . وهو ينکر تمام الانکار أن يكون الغزالى قد فعل . والحقيقة أن الغزالى لم يعتقد هذه العقيدة ولم يأخذ بها . وحقا قد وردت اشارات غامضة أحیانا في بعض كتبه التي قد توحى للتقاريء بأن الغزالى يضمن فيها مذهب وحدة الوجود . وهذا خطأ كبير في فهم المذهب . ان مذهب الغزالى – كوحدة كاملة – مذهب ينبع من القرآن والسنة ولا يجحد عنهما .

أما عن عدم تمكن الغزالى من الكلام فالسبكي يقول ان قدم الغزالى راسخ فيها ولكن لا بالنسبة الى رسوخ قدمه في بقية علومه . ثم يرد ردًا بديعا على المازرى في قوله « ان الغزالى اشتعل في الفلسفة قبل استبحاره في

(١) السبكي : نفس المصدر ج ٤ ص ١٢٥

فن الاصول » يعود السبكي الى منهجه التاريخي البديع ، مطباً اولاً كما قلت طريقة النقد الخارجى للنص . يلجأ السبكي الى كتاب الغزالى - المتقد من الصال - أكبر وثيقه فريدة تركها الغزالى عن حياته الروحية ، فيرى فيها السبكي قول الغزالى « انه توغل في علم الكلام قبل الفلسفة » . ثم يذكر هذا النص البديع « ثم قول المازرى أنه قرأ علم الفلسفة قبل استبحاره في علم الاصول ، بعد قوله انه لم يكن بالستبحر في الاصول كلام ينافض أوله آخره »^(١٢) . وهذه محاولة نقدية داخلية لكتاب المازرى . ثم يتبع النقد الداخلى لنصوص الغزالى فيقرر أن الغزالى لم يتجرأ على المعانى الا حيث دله المشرع « ويدعى خلاف ذلك من لا يعرف الغزالى » .

اما أن الغزالى أخذ من أبي حيان التوحيدى ، فيما خطأ . ان مصادر الغزالى في تصنوفه الرسالة التشيرية وكتاب قوت القلوب لا بي طالب المكى . ثم استدرك السبكي على مصادر الغزالى في التصنوف بأنه أضاف الى ما أخذته من التشيرى ومن أبي طالب المكى كلام مشايخه هو ثم « ما زاده من قبل نفسه بفكرة ونظرة وما فتح به عليه ، وهو عندي أغلب ما في الكتاب ، وليس في الكتاب للفلاسفة مدخل ، ولم يصنعه الا بعد ما ازدرى علومهم ونبى عن النظر في كتبهم »^(١٣) .

وكل ما ذكره السبكي حق واضح ، فان احياء علوم الدين استند على اقوال مشيخة أهل السنة القدماء من الصوفية مع تفكير غزالى خاص فى جوهره . ان نقطة الضعف الوحيدة فى الاحياء هي ضعف وتوهيه الاحاديث . والسبكي لا ينكر هذا ويرى أنه لم يكن للغزالى « يسد باسطة فى الاحاديث »^(١٤) . غير أنه يتلمس العذر للغزالى بأن عامة ما فى الاحياء من

(١٢) السبكي : نفس المصدر ج ٤ ص ١٢٥

(١٣) السبكي : طبقات الشافعية ح ٤ ص ١٢٦

(١٤) السبكي : طبقات الشافعية ح ٤ ص ١٢٦

الاخبار والآثار مبدد في كتب من سبقة من الصوفية والفقهاء .

وحيث يتهم السبكي من مناقشة المازري يتقل إلى مناقشة الطرشوش .
ويرى أن الطرشوش أخطأ خطأً بالغاً بقوله إن الغزالى دخل في وساوس
الشيطان . ويتحداه أن يثبت كلامه بينة من كلام الغزالى . أما أن الغزالى
بين آراءه بآراء التلاسفة ورموز الحلاج فينكرها السبكي ، فيقول انه لم
ير هذه الرموز في كتب الغزالى . أما أن الغزالى كما يدعى الطرشوش لم
يكن ايساً بعلوم الصوفية فإنه « كلام بارد »^(١٥) . وإن لم يكن الغزالى
يدرس التصوف فمن يدرسه « ويدلوا أنه قد وصل إلى الطرشوش كتب من
النسبة إلى الغزالى ، وأن أعداءه كانوا يكيدون له حتى في حياته ويزورون
عليه الكتب . ولا يعقل أن يكتب الطرشوش ما كتب بدون حجة يستند
عليها . ويدلوا أن السبكي . وكان أكبر عالم مؤرخ ناقد في العالم الإسلامي
قام بتحقيق كل هذا ووصل إلى النتائج الصحيحة التي أوردها في مناقشاته
للمازري وللطرشوش .

والسبكي مؤرخ عادل نزيه . لم يرض أن يهاجم من هاجموا
الغزالى في عقيدته . وأن يرد لهم الكيل ، بل في استلام الصوفى شبه آخر الامر
معارضى الغزالى ، وعلى الخصوص عالم الاسلام الكبير اشيخ تقي الدين
بن الصلاح الذى هاجم الغزالى أيضاً كما سرى فيما بعد - بهوم متبعين
سليمة قلوبهم قد رکتوا الى الهونينا ، فرأوا فارساً عظيماً من المسلمين ، رأى
عدوا عظيماً لاهل الاسلام ، فلم يشنِ ، بل حمل عليهم ، واتعمس في
صفوفهم ، وما زال في غمرتهم ، حتى قضى عليهم . ومن المؤكد أن دما
قليلاً من دمائهم قد أصابه ، وعاد سالماً ، فرأوه وهو يغسل الدم ، ثم دخل
في زمرة هؤلاء القوم المتبعين ، يصلى صلاتهم ويتبعد عبادتهم ، فتوهموا
أن الدم عليه ، فأنكروا عليه . ويتهى السبكي بأن يقول « هـذا حال

(١٥) السبكي : طبقات الشافعية ح ٤ ص ١٢٧

الغزالى^(١٦) . وحالهم ، وانكل مجتمعون فى مقعد صدق عند مليك
مقدار »

٣ - علي بن محمد السعال الطبرى :

كان من مریدى امام الحرمين وتلامذته . ومن زملاء الغزالى . وقد
هاجم الغزالى فى فتواء بعدم لعن يزيد بن معاوية . وقد أثارت مسألة لعن
يزيد وعدم لعنه ضجة كبيرة حول الغزالى . ولم ترض دوائر أهل السنة
والجماعة ، كما لم يرض الشيعة عن موقف الغزالى^(١٧) .

٤ - ابن الصلاح الشهريزورى :

ان هذا العالم العظيم الذى أثر فى العالم الاسلامى أنرا كيرا أدى .
أيضا بدلوه فى « مشكلة الغزالى » كما اسمياها . دافع عن الغزالى دفاعا
مجيدا من ناحية ، وهاجمه من ناحية أخرى هجوما عنيفا .

أما دفاعه عن الغزالى فكان فى نطاق فلسفة الغزالى . وقد حفظ
السبكي لنا عنه هذا النص « ان كتاب المصنون المنسوب اليه معاذ الله أن
يكون له » وبين سبب كونه مختلفا موضوعا عليه . والامر كما قال « وقد
اشتمل المصنون على التصريح بقدم العالم ونفي العلم بالجزئيات ونفي
الصفات . وكل واحدة من هذه يكفر الغزالى قائلها هو وأهل السنة
أجمعون . وكيف يتصور أنه يقولها^(١٨) » .

وهذا الموقف « الخامس من ابن الصلاح ينهى المناقشات العديدة حول
كتاب « المصنون » . وهو كتاب فلسفى اختلف فيه كثيرا وفي حقائقه .
وذهب المؤرخون مذاهب شتى منه هل هو للغزالى أم ليس له . وهل
هناك كتابان باسم المصنون به على غير أهله « كتاب كبير وكتاب صغير . فلتى

(١٦) السبكي : طبقات الشافعية ح ٤ ص ١٢٨

(١٧) ابن خلگان : وفيات الاعيان ح ٣ ص ١٦٥

(١٨) السبكي : طبقات الشافعية ج ٤ ص ١٣١

ابن الصلاح وأنكر أن يكون هذا الكتاب المليء بالفلسفة والذى نهج فلاسفة الإسلام للغزالى . وهذا هو الرأى الصحيح .

أما هجومه على الغزالى ، فهو في محاولة الغزالى المشهورة في مزاج المنطق اليونانى بعلوم المسلمين .

ان الغزالى يعلن في مقدمة المستصفى المنطقية ، ان من لا يحيط بالمنطق ، فلا ثقة بعلومه أصلاً^(١٩) وجعل معرفة المنطق شرطاً من شروط الاجتهداد . وقد تابع كثيرون من علماء أصول الدين وعلماء أصول الفقه ما دعا إليه أبو حامد الغزالى في كتابه العديدة المتقدمة من مزاج المنطق الارسططاليسي بالاصول والكلام . فجعل محل أدلة النظر الكلامية الأولى أدلة النظر الارسططاليسي . وتغلغل المنطق الارسططاليسي في صميم المسائل الكلامية والأصولية نفسها . ونشأت عن هذا حركة فكرية شديدة الأثر في الفكر الإسلامي^(٢٠) . يقول ابن تيمية « وبسبب ما وقع فيه الغزالى في اثناء عمره وغير ذلك . صار كثير من الناظار يدخلون المنطق اليونانى في علومهم ، حتى صار من يسلك طريق هؤلاء المتأخرین ، يظن أنه لا طريق الا هذا . وأن ما ادعوه من الحد والبرهان هو أمر صحيح عند العقلاة . »^(٢١)

كان من أثر هذه الحركة في العالم الإسلامي ان ذهب كثير من مفكري الأصوليين أن تعلم المنطق فرض كفاية على المسلمين ، على أن طائفه من الفقهاء من لم يوافق على هذه الحركة المنطقية الأخيرة . ووقف منها موقف العداء الشديد وهو حجج الغزالى هجوماً شديداً من علماء المسلمين أمثال أبي اسحق المرغيني وأبي الوفاء بن عقيل والفووارى وابن الصلاح . وأقوال ابن الصلاح هي التي تهمنا الآن .

(١٩) الغزالى : المستصفى ج ١ ص ١٠

(٢٠) علي سامي النشار : مناهج البحث عند مفكري الإسلام ص ١٣٩

(٢١) ابن تيمية : جهد القرىعة ص ٢٨٧

كتب ابن الصلاح فصلاً في بيان أشياء مهمة أنكرت على الإمام الفزالي في مصنفاته . ولم يرتفعها أهل مذهبة وغيرهم من الشذوذ في تصرفاته . وينذكر ابن الصلاح من هذه المسائل قول الفرزالي في مقدمة المنطق في أول المستحبى « هذه مقدمة العلوم ومن لا يحيط بها فلا فقة في علومه أصلاً » . ويقول ابن الصلاح سمعت الشيخ العمامي بن يونس يحكى عن يوسف الدمشقي مدرس النظامية ببغداد ، وكان من الناظران المعروفين : أنه كان ينكر هذا الكلام ويقول قابو بكر وعمر وفلان وفيلاه وصلوا إلىغاية من اليقين ولم يكن أحد منهم يعرف المنطق ^(٢٢) وقد أطلق ابن الصلاح بعد ذلك فتواه الشهورة في تحريم المنطق . والفتوى تمس الفرزالي بلا شك إذ أن الفتوى تحرم كل كتاب أصولي ممزوج بالمنطق ^(٢٣) : وقد أحقرت كتب الفرزالي في المغرب . ويبعدو أن الفرزالي كان نفسه يشعر ، كما يقول ابن طملوس الاندلسي ، بأنه أخطأ فيما كتب من منطق ، ولذلك لم يدع كتبه باسم المنطق بل بالعيار والمحك والميزان ^(٢٤) .

ولكن اندد على كل هذا . أن الفرزالي قد أدرك نهاية الأمر أحظار المنطق الارسططاليسي على العالم الإسلامي وعلى المسلمين فقال إن هناك علتين تهدمانه من أسسه أما أولاهما : فهي قصور البرهان الفلسفى عن أن يصل بالإنسان - حين يطبقه في الالهيات إلى درجة اليقين يقول الفرزالي « لهم نوع من الظلم في هذا العلم ، وهو أنهم يجمعون للبرهان شروطاً يعلم أنها تورث اليقين لا محالة . ولذلك عند الانتهاء إلى المقاصد الدينية ما يمكنهم الوفاء بتلك الشروط . بل تساهلوا غاية التساهل » ولذلك كان

(٢٢) ابن تيمية : شرح العقيدة الاصفهانية - ص ١١٤ - ١١٥

(٢٣) ابن الصلاح : فتاوى ابن الصلاح في التفسير والحديث والاحسان والعقائد (طبع القاهرة ١٣٤٨) ص ٤٣

(٢٤) ابن طملوس : المدخل إلى صناعة المنطق (طبع مدريد) ص ١٤-٨

من أهم الاسباب التي دعت المسلمين الى نقد المنطق الارسططاليسي اتصاله بالاهيات أرسطو . وكانت هذه الالهيات مخالفة لعقائد المسلمين . واعتبرت العلة في هذه المخالفة اخراجها على قواعد ناقصة هي قواعد المنطق الارسططاليسي . أما ثانيهما ففسرها الغزالى بقوله « اذ ربما ينظر فى المنطق من يستحسن ويراه واضحًا ، فيظن أن ما ينقل عنهم من الكفرات مؤيدة بمثل تلك البراهين . فاستعجل بالكفر قبل الانتهاء الى العلوم الالهية »^(٢٥) . وللهايتين العلتين هدم الغزالى فكرته الاولى عن المنطق باعتباره منهجاً من مناهج البحث الموصلة الى اليقين في جميع فروع المعرفة الإنسانية . فالغزالى اذن تبين له آخر الامر ما يتوجه تطبيق منطق آرسطو على المسائل الاسلامية وخاصة الالهية من تناقض ، بل اتنا نرى ابن تيمية - أعدى عدو للغزالى في فكرته عن مزاج المنطق بعلوم المسلمين . ويقول « وبين في آخر كتبه - أن طريقتهم فاسدة لا توصل الى يقين . وذمها أكثر مما ذم طريقة المتكلمين وكان أولاً يذكر في كتبه كثيراً من كلامهم اما بعباراتهم واما بعبارة أخرى . ثم في آخر أمره بالغ في ذمهم وبين أن طريقتهم متضمنة من الجهل والكفر ما يوجب ذمها وفسادها أعظم من طريقة المتكلمين »^(٢٦) .

٥ - ابن تيمية :

يكاد يكون ابن تيمية من أكثر الناس مهاجمة للغزالى . انه يحترم الغزالى احتراماً كاملاً في كثير من كتاباته وخاصة الاخلاقية . ولكنه يهاجميه هجوماً عنيفاً في مسائل متعددة . هاجمه أولاً في موقفه من الفلسفة . وهاجمه ثانياً في تصوفه وهاجمه ثالثاً في موقفه من المنطق . أما عن موقفه من الفلسفة فابن تيمية يرى أن الغزالى مزاج كثيراً من مذاهب بالفلسفة . ففي كتابه المصنون به على غير أهله يصرح بقدم العالم

(٢٥) الغزالى : المنقد من الضلال (طبعة دمشق ١٣٥٣هـ) ص ٧٦

(٢٦) ابن تيمية : جهد القرىعة ص ٢٨٦ - ٢٨٧

ونفي العلم بالجزئيات ونفي الصفات . وهذه تهم خطيرة أئمهم بها الغزالى -
وكان مثار جدل كبير - كما قلنا . ولم يستطع هذا الناقد الممتاز أن يتبيّن
أن الكتاب منسوس عليه .

وفي فقرة أخرى يرى ابن تيمية أن الغزالى أخذ بطرق الفلسفه فى اثبات النبوة وان النبوة قوة مكتسبة وهيئة واستعداد يتصل بواسطته النبي بانور الاعلى ، ويرى ان الغزالى فى الكتب المضافة اليه قد يوافق بعض تلك الاصول بل فى الكتب التي يقال انها مضنون بها على غير اهلها ما هو فلسفة محضة مخالفة لمدين المسلمين واليهود والنصارى وان كان قد عبر عنها بعبارات اسلامية « ويرى ابن تيمية – انصافا للغزالى – ان الناس اختلفوا فى أمر هذه الكتب – فالبعض يقول انها مكذوبة ، والبعض يقول انه رجع عنها ولكن ابن تيمية يقرر « ولا ريب أنه صرح في بعض كتبه ببعض ما قاله في هذه الكتب »^(٢٧) وقد أخطأ ابن تيمية هنا . فان من ينسب هذه الكتب الى الغزالى ويزيورها عليه رجل بارع ، سيسقطها فقرات من كتبه الأخرى .

وأئم الغزالى أيضاً بأنه مزج علم الكلام بالفلسفة . وهاجمه الغزالى فى كتابه « جهد القرىحة » هجوماً عنيفاً وذكر أن الغزالى هو أول من مزج علم الكلام بالفلسفة . وأن علم الكلام كان يتبين قبله عن فكر إسلامي خالص .^(٢٩)

والغزالى حتىقة هو أول من حاول إقامة علم الكلام على قواعد فلسفية يونانية . ولكنك لم يقصد بهذا ادخال المذاهب اليونانية كعوائد اسلامية بحثه . بل ان الامر على العكس تماما فقد هاجم الغزالى الفلسفة وكفر أصحابها باسم الاسلام نفسه .

(٢٧) انظر مجموعة القتاوى الكبرى وخاصة السبعينية والتسعينية

و كذلك موافقة صريح المعمول لتصريح المقاول . من ص ١ إلى ١٥
 (٢٨) ابن تيمية : جهد القرىحة - من ٢٠١ إلى ٣٠٠

الفزالي والتصوف :

ابن تيمية أعدى مفكري الاسلام للتصوف الفلسفى القائم على مذهب الاتحاد أو وحدة الوجود . وقد هاجم محي الدين بن عربى وابن سبعين والششتري وغيرهم ثم حاول أن يتلمس فى كتابات الصوفية من أهل السنة بعض تلك العقائد المخالفة للإسلام . فإذا تبين له هذا هاجم أصحابها هجوماً عنيفاً ولم يسلم الفرزالى من قلمه : يقول « وأما الذى يسمى الفرزالى علوم المكافحة ، ويرمز إليها فى الاحياء وغيره ، ففيها يستمد كلامه من كلام المتفلسفة وغيرهم ، كما فى مشكاة الانوار والمصنون به على غير أهله وغير ذلك . وبسبب خلطه التصوف بالفلسفة ، كما خلط الاصول بالفلسفة ، صار ينسب إلى التصوف من ليس هو موافقاً للمشيختين المتقبolin الذين لهم في الامة لسان صدق بل يكون مبينا لهم في أصول الایمان كلاً يمان بالتوحيد والرسالة واليوم الآخر »^(٢٩) .

فابن تيمية اذن يهاجم تصوف الفرزالى لنفس العلة التي هاجم فلسنته بها . وتناسى ابن تيمية أن المصنون به على غير أهله ليس للفرزالى قطعاً . وأما المشكاة فهي بين أيدينا وليس فيها ما يخالف الاسلام أو السنة . وبسبب آخر هو أنه يرى أن الفرزالى سلك مسالك أهل التصوف ، لأن التصوف كان محيا عند أهل الشروة والبلجاه . ولذلك يكثر من تأليف الكتب للوزراء والعلماء . بل ونرى بعض المؤرخين يذهبون إلى أن الفرزالى اتى خرج من بغداد متصوفاً لحسده لعالم كبير ، وكانت له شهرة عظيمة جذبت تلاميذه الفرزالى إليه .

وهذا خطأ وتجن على التاريخ الحقيقى لحياة الرجل . لقد وصل الفرزالى إلى أكبر جاه دنیوی . فلم يكن في حاجة إلى لباس التصوف ليزيد علواً ورقة . وشهادة عبدالغفار بن اسماعيل الخطيب

(٢٩) ابن تيمية . موافقة صريح العقول من ١ إلى ١٥

الفارسي - خطيب نيسابور أكابر دليل على هذا . وقد نقل السبكي حديث عبد الغفار بن اسماعيل عن تصوف الغزالى وانتهى بتلك العبارة « انه ثار على الاصداد ، وتصفى من الکدورات وكانت أظن أنه متلفح بجلبات التکلف » متيمن بما صار اليه ، فتحققت بعد التروي وانتدیر أن الامر على خلاف المظنون وأن الرجل أفق بعد الجنون »^(٣٠) وفي صحراء الاسكندرية قابله أيضا القاضى أبو بكر العربى تلميذه ورآه وقد تمزقت ملابسه - وفي يده عکاز وعلى عاتقه رکوه . وكان يراه من قبل فى بغداد ، وقد أقبلت عليه الدنيا ، ووقف ببابه العظام والکبراء والعلماء، ويتنافس الامراء فى طاعته فلما اقترب منه ، قال له أيها الامام أليس تدریس العلم ببغداد خيراً من هذا . ولكن لم يأبه ، وأخذ يردد « لما بزغ بدر السعادة من فلك الارادة وقربت شمس الوصول ، الى مغارب الوصول

تركت هوى ليلى وسعدي بمعزل
وعدت الى مصحوب أول منزل
ونادتى الاشواق مهلا فهذة
منازل من تهوى رويدك فانزل
غزلت لهم غزوا رقيقا فلم أجد
لغزلى نساجا فكسرت مغزلى
ثم مضى في سيله .^(٣١)

ومشكلة تصوف الغزالى مشكلة كبرى ، ذهب بعض المؤرخين الى أن الغزالى لم يبدع في التصوف ، وإنما أخذ تصوفه من قوت القلوب لابى طالب المکى ومن الرسالة للقشيرى ، واعتبره صوفية وحدة الوجود -

(٣٠) السبكي : طبقات الشافعية ح ٤ ص ١٠٣

(٣١) الغزالى : معيار العلم ٠٠ المقدمة

كمحي الدين بن عربى مثلا - متصوفاً أمياً لم يدرك الكنه الرائع للتصوف» وذهب بعض المؤرخين الى أن أخاه أحمد الغزالى - الصوفى الحقيقى والذى لم يدرك بعد ، هو الذى أثر على أخيه وأشعل فيه ناراً محرقة من الحب والخانق ، دفعته الى الخروج من بغداد

وقد وجه الخوانساري صاحب روضات الجنات نقداً الى طريقة الغزالى في التصوف - ويقول ان هذه الطريقة تقوم على كثرة السماع - سماع الانقام والرقص . ثم استباحته للمريد أن يسرق وأن يرتكب بعض الآثام . وهاجمه ابن الجوزى فى تليس أبيليس فى فكرته عن أن الصوفى لا يصل الى الحقيقة الا بالخلوة فى مكان مظلم . واذا استعصى عليه هذا ، فعلية أن يلف رأسه بعبادة سوداء .

والغزالى لم يبح كثرة السماع ، كما أنه لم يبح للمريد أن يسرق وأن يرتكب بعض الآثام . هناك حقاً آثار ملامية في تصوف الغزالى - ولكن هذه الملاميات إنما هي في باطن الشرع - أما الخلوة في مكان مظلم ، فهي تجربة شخصية ، لم يلزم الغزالى بها أحداً .

* * *

تلك هي المطاعن التي وجهت الى الغزالى ، وجهت بقسوة وعنف الى أكابر شخصية ظهرت في الاسلام ، لا تقوم في جوهرها - على أساس حقيقي . دفع أصحابها إلى وضعها - اما مذهب ظاهري ، واما غيره مذهبية ، واما حدة فيطبع . ولعل ابن تيمية وبعض الباحثين المحدثين من شباب العلماء المسلمين اذا راجعوا ما كتبوا - بعد دراسة أعمق وأشمل بمكتب الغزالى - يعودون الى نظرة عادلة لحياة أكابر متكلم واكبر فيلسوف وأكابر صوفى في تاريخ الاسلام كله .